العلم والعزم عند آدم وموسى عليهما السلام

إنما يمتاز إنسان عن آخر بما يكون في رصيده من العلوم والمعارف والجد والاجتهاد؛ فلا يستوي العالم والجاهل، ولا المجتهد والقاعد.

وأعظم ما ميّز أبا البشرية آدم -عليه السلام- عن سائر المخلوقات بما فيهم الملائكة المكرمين العلم.

والعلم الذي أوتيه كان منحة ربانية له، دون طلبٍ منه، أو اجتهادٍ في تحصيل، ولم يكن بواسطة معلّمٍ أو شيخٍ أو مربٍّ.

قال -تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ [البقرة: 31-33].

وهذا العلم محله العقل، وإذا كان عقل آدم -عليه السلام- وعى هذا العلم الإلهي الممنوح له فإن العلماء استنبطوا أن يكون عقله قويًّا لدرجة أنه يفضل عقول أبنائه أجمعين.

قال أبو أمامة الباهلي: "لو أن أحلام بني آدم جُمعت منذ يوم خُلق آدم إلى أن تقوم الساعة فوضعت في كفة وحلم آدم في كفة، لرجح حلمه بأحلامهم.

وأخرج أبو الشيخ في (العظمة) عن الحسن قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده"[1].

لكن بعض العلماء رأوا أن هذا الإطلاق والتعميم يحتاج إلى ضبط واستثناء؛ لذا قال القرطبي "قول أبي أمامة هذا عموم في جميع بني آدم.

وقد يحتمل أن يخص من ذلك نبينا محمد -ﷺ؛ فإنه كان أوفر الناس حلمًا وعقلاً.

وقد يحتمل أن يكون المعنى: لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء"[2].

وبعد إسجاد الملائكة لآدم -عليه السلام- حصل له علم آخر جاء في هيئة وصية وتحذير وعهد قال -تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: 35].

وأتْبع ذلك بعلمٍ آخر جاء في صيغة التحذير، قال -تعالى: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾ [طه: 117].

وقد تحمَّل آدم -عليه السلام- هذا العلم، ووعى هذا التحذير، لكنه ما لبث أن نسي، وحدثت منه الغفلة، فوقع في المحذور رغم العلم السابق له، قال -تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ [طه: 115].

و"العَزْمُ: الجِدُّ. عَزَمَ على الأَمر يَعْزِمُ عَزْمًا: أَراد فِعْلَه. وقال الليث: العَزْمُ ما عَقَد عليه قَلْبُك من أَمْرٍ أَنَّكَ فاعِلُه. والعَزْمُ: الصَّبْرُ في لغة هذيل"[3].

قال الطبري: "وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء؛ لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: ﴿**وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلب، على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه"[4].

فكان علمٌ ثم عهدٌ ثم نسيان؛ إذ إنه نظر بعين الشهوة فنسي العهد وغفل عن العلم الذي كان عنده؛ لذا "قال قوم: آدم لم يكن من أولي العزم من الرسل.

وقال المعظم: كل الرسل أولو عزم"[5].

فالعلم لا يمنع من الوقوع في الخطأ أو الخطيئة.

لكن آدم -عليه السلام- لم يُعاقب بحرمان العلم، بل عوقب بالشقاء في الدنيا والصراع فيها.

أما موسى -عليه السلام- فإنه سعى للعلم طلبًا لما لم يُحِط به، على عكس آدم -عليه السلام- الذي جاءه العلم وأحاط به.

وهذا العلم الذي سعى إليه موسى -عليه السلام- كان بواسطة، ولم يكن مباشرًا كما كان مع آدم -عليه السلام.

وكان ذلك تأديبًا لموسى -عليه السلام؛ إذ ورد في الحديث: "**قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**"[6].

لكن حمل معه همّة عالية لا تفتر وعزيمة ماضية، وضرب في الأرض ساعيًا للوصول إلى العبد المشار إليه، وخلّد القرآن هذه الهمة في قوله -تعالى- حكاية عن موسى الكليم: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ [الكهف: 60].

قال النيسابوري: "وقيل: إنه -تعالى- أعلم موسى حال هذا العالم وما أعلمه بعينه فقال موسى: لا أزال أمضي حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرًا واحدًا أو أمضي دهرًا طويلاً حتى أجد هذا العالِم، وهذا إخبار من موسى -عليه السلام- بأنه وطّن تحمل التعب الشديد إلى أن يلقاه.

وفيه تنبيه على شرف العلم، وأن طلب العلم يحق له أن يسافر، ويتحمل المتاعب في الطلب من غير ملال وكلال"[7].

ورغم هذا العزم في الطلب والسعي، إلا أنه كان متعجلاً على هذا العالم طلبًا لمعرفة ما لم يُحط به علمًا وخُبرًا، فكان قليل الصبر في هذا الموطن رغم تكرار العبد الصالح عليه: ﴿**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾ [الكهف: 67]، وندم على تعجله فوقع في أمرٍ لم يحسب له حسابًا، وهو مفارقة هذا العبد الصالح صاحب الأعاجيب، قال -تعالى- حكاية عما دار بينهما: ﴿**قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76)فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾ [الكهف: 76-78].

وموقف موسى الكليم كان مدعاة لترحّم رسول الله المصطفى على أخيه فقال: "**يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى؛ لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا**"[8].

فقد كان النبي المصطفى في اشتياق للاطّلاع على المزيد من الأعاجيب التي جرت على يد الخضِر، لكن قدر الله لا دافع له ولا مانع منه؛ فقد قضى الله أن يخرج آدم -عليه السلام- من الجنّة، وألا يستمر موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح.

فموسى -عليه السلام- عزم على طلب العلم اللدني الذي لم يحط به، ثم تعجل قطف الثمرة فحُرم طول الصحبة مع العبد الصالح، لكن الرسالة قد وصلته ألا يزكّي نفسه دون ردّ الفضل لله -تعالى، قال العيني: "قيل: جاء هذا تنبيهًا لموسى وتعليمًا لمن بعده، ولئلا يقتدي به غيره في تزكية نفسه والعجب بحاله فيهلك، وإنما مجيء موسى للخضر للتأديب لا للتعليم"[9].

([1]) الدر المنثور للسيوطي، (5/603) باختصار.

([2]) تفسير القرطبي، (1/307).

([3]) لسان العرب، مادة (عزم) باختصار.

([4]) تفسير الطبري، (18/385).

([5]) تفسير القرطبي، (11/252) باختصار.

([6]) جزء من حديث أخرجه البخاري في "العلم"، باب: "مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ، فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ"، ح(122) من حديث أبي بن كعب -رضي الله عنه.

([7]) تفسير النيسابوري، (4/445).

([8]) سبق تخريجه.

([9]) عمدة القاري، (2/64).